علاقة الاستلاب الفكري بالمناهج الجامعية

معاد محمد عمرو مطاوع، نادية صالح الراقوبي / كلية التربية نالوت / جامعة نالوت

الملخص

المثاقفة هي عملية التطور الثقافي الذي يطرأ حين تدخل مجتمعات أو جماعات أو شعوب تنتمي إلى ثقافات مختلفة في اتصال وتفاعل يترتب عليهما حدوث تغيرات في الأنماط الثقافية الأصلية السائدة في الجماعات كلها أو بعضها، لذلك تعبر المثاقفة عن أوجه التبادل الثقافي بين الحضارات البشرية المتعددة وحالة من الاعتدال بين الذوبان و التصلب في التعاطي مع ثقافة الآخر، وهي اتجاه يسعى أن يكون وسطا بين الانفتاح المطلق الذي يؤول إلى الانصهار في ثقافة الآخر وبين الانغلاق المطلق الذي يؤول إلى الانعزال تماماً عن الآخر.

إن السمة البارزة لمفهوم المثاقفة في الفكر العربي تتجلى في مواقف بعض المثقفين العرب التي اتسمت بالحذر من المثاقفة برغم اعترافاتهم بأهميتها وبضرورة الانفتاح على الأخر وثقافته، وثمة مفكرين تعاملوا مع هذا المفهوم من منطلق مختلف يقوم على ضرورة التمييز بين مفهوم المثاقفة الذي يعني التفاعل المتكافئ و الاحترام المتبادل بين مختلف ثقافات الشعوب وبين مفهوم التبعية و الاستلاب والغزو الثقافي و العولمة الثقافية و الغربية . تتحول المثاقفة إلى استلاب ثقافي حين يتحول التمثل إلى استدماج[1]، التمثل يحفظ الفروق، ولكن الاستدماج يذيبها، والحوار الحضاري لا يكون حواراً (وذلك لأن الحوار يفترض طرفين منفصلين تماماً) من خلال الاستلاب، إذ يصير، حينئذ، بمثابة صدى صوت المتحاور معه.

المقدمة

إن تحديد المصطلحات والمفاهيم يساعد على فهم أفضل للفرضيات و الاستنتاجات، ويغني عن التأويل الخاطئ وعن الوقوع في الالتباس، ويحاول هذا المفهوم أن يختزل واقع تعايش وتلاقح ثقافات مختلفة، وقد اهتم المؤرخون بمظاهر التقاء الحضارات في إطار الدينامي و المتحرك، وبرزت الأبحاث الرائدة في هذا المجال ، إذ نتج عن الاكتشافات الجغرافية واستقرار الأوروبيين بهذا القارة التي كانت بمنأى عن تأثير ثقافة وحضارة العالم الآخر و بالتالي أصبحنا أمام ثقافة

1 الاستدماج عبارة عن عملية يحاول فيها الشخص نسخ أو تكرار سلوكيات أو أفكار من الوسط المحيط أو من أشخاص آخرين وجعلها جزء من داخله.

أوروبية ترى لنفسها السبق. وبتلاقح هذه الثقافات ينتج مصطلح "المثاقفة" لتوصيف العلاقة الواصلة بيننا وبين الغرب لتصل في النهاية إلى استلاب فكري للثقافة الاقوة ، استلاب غير قادر على إنتاج الفكر الذي يمكنه وضع حد للفكر الأقوة، لأسباب كثيرة، منها الفقر المادي و الثقافي و العلمي، وحال الإبهار التي يصاب بها الافراد المستلبون، فضلا عن الشعور بالدونية إزاء الآخرين, يحاول هذا البحث أن يطرح مفهوم المثاقفة و الاستلاب الفكري في فكرنا المعاصر بحثا عن الإشكاليات التي تعترض هذا المفهوم، فضلا عن التطرق نقد الاستلاب في فكرنا المعاصر و تأثير المناهج المستوردة في سلوك المتعلمين وخلق تفكير تعليمي مستلب، و الارتباط بإنتاج الآخر على مستوى المناهج الجامعية.

منهجية البحث :

سنعتمد على منهج وصفي تحليلي للوصول إلى العلاقة بين المثاقفة و الاستلاب الفكري.

أهداف الدراسة:

تسعى الدراسة إلى تحقيق الأهداف التالية:

1. التعرف على مفهومي المثاقفة و الاستلاب
2. دراسة العلاقة بين المثاقفة والاستلاب الفكري
3. التعرف على مظاهر الاستلاب الفكري لدى الفكر المعرفي.
4. التعرف على العلاقة بين المثاقفة و الغزو الثقافي.
5. التعرف على الاستشراق وأثر المستشرقين على الدين الإسلامي.

مشكلة الدراسة :

إن التغيرات التي شهدها العالم المعاصر و التي أدت إلى كثير من التداعيات أهمها الاستلاب الثقافي و الفكري، وحيث إن الضعيف يميل في العادة إلى تقليد القوي في كافة مظاهر حياته، فقد كان لتأثير هذه المتغيرات الأثر الأكبر على فكر و ثقافة الإنسان العربي، إذ أدت إلى بروز حالة من الاستلاب الثقافي و الفكري له الذي انعكس على الفكر الإنساني و القيم في العالم العربي .

أهمية الدراسة :

تندرج أهمية هذه الدراسة ضمن اهتمامات في التأصيل النظري لمفهوم المثاقفة و الاستلاب الفكري وتأثير الاستلاب على الفكر العربي و المنهجية المستلبة من الغرب و تاثير ذلك على العملية التعليمية.

مفهوم المثاقفة :

إن فحص المفاهيم المتصلة "بالمثاقفة" وتدقيق مدلولاتها، يساعد على فهم أفضل للفرضيات و الاستنتاجات، كما يغني عن التأويل الخاطئ و الوقوع في الالتباس، ويضع إطار محددا ودقيقا و واضحا لمفهوم " المثاقفة" بوصفه واقع تعايش و تلاقح ثقافات مختلفة.

تضمن مفهوم المثاقفة في معجم كازمرسكي معنى الصراع الذي لا تتساوى أطرافه، كما تعرضت الموسوعة العالمية للمصطلح معرّفة بتاريخ ظهوره والمعاني التي تحملها، فأصل الكلمة لاتيني وتعني التقارب المثاقفة مصطلح برز في حقل الأنتروبولوجيا في أربعينيات القرن العشرين و بالضبط مع الأنتررووبولوجيين الأمريكيين داخل المدرسة المسمّاة (ثقافويّة) ، وإن كان الفضل في استخدامه أوّل مرّة يعزى إلى باول وذلك سنة 1880م[2]. وأصبح مصطلح المثاقفة أكثر تداولية وشيوعا، إلا بعد أن تمكن من وضع تعريف لهذا المصطلح يقوم على أنه (اختزال واقع تعايش وتلاقح ثقافات مختلفة)[3].

وتعرف المثاقفة كذلك على أنها التغير الثقافي في الظواهر التي تنشأ، حيث تدخل جماعات من الأفراد الذين ينتمون إلى ثقافات مختلفة في اتصال مباشر، مما يترتب عليه حدوث تغييرات في الأنماط الثقافية الأصلية السائدة في أحدى الجماعتين أو فيهما معا[4].

وفي تعريف آخر للمثاقفة يمكن اعتباره المعتمد عند بعض المفكرين و الباحثين (أن المثاقفة هي مجموع الظواهر الناتجة عن احتكاك مستمر ومباشر بين مجموعات أفراد تنتمي إلى ثقافات مختلفة تؤدي إلى تغييرات في الأنماط الثقافية الأولية للجماعة أو الجماعات)[5]. فالمثاقفة إذن

2 بياربونت، ميشال إيزار، معجم الأثنولوجيا و الأنثروبولوجيا، ترجمة مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع– بيروت، الطبعة الأولى– 2006م.

3 المصدر السابق.

4 إبراهيم أبو عرقوب، الاتصال الإنساني و دوره في التفاعل الاجتماعي– دار مجدلاوي للنشر و التوزيع –الطبعة الاولى. ص 32

5 دورتيه، معجم العلوم الإنسانية، ترجمة جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع– بيروت، الطبعة الثانية– 2011م.ص119 .

هي عملية التطور الثقافي الذي يطرأ حين تدخل مجتمعات أو جماعات أو شعوب تنتمي إلى ثقافات مختلفة في اتصال وتفاعل يترتب عليهما حدوث تغيرات في الأنماط الثقافية الأصلية السائدة في الجماعات كلها أو بعضها، لذلك تعبر المثاقفة عن أوجه التبادل الثقافي بين الحضارات البشرية المتعددة وحالة من الاعتدال بين الذوبان و التصلب في التعاطي مع ثقافة الآخر، وهي اتجاه يسعى أن يكون وسطا بين الانفتاح المطلق الذي يؤول إلى الانصهار في ثقافة الآخر وبين الانغلاق المطلق الذي يؤول إلى الانعزال تماماً عن الآخر. و المثاقفة في الأصل هي : (تفاعل خياري طوعي لايتم ولا تجنى ثماره إلا برغبة تبادلية بين المتثاقفين، ولا يمكن أن تتحقق أبدا في حالات الإختلاط القهري الناتج عن الحروب و الإحتلال، إذ ينجم عن ذلك الاختلاط "تشوهات ثقافية" لا تتمتع بأية سمة من سمات " المثاقفة" الطوعية)[6] . وبمعنى آخر فإن المثاقفة تقوم على أسس التساوي و الاحترام و التسامح و الاعتراف بالآخر، وحقه في الاختلاف، وهي ترعى التواصل والتفاعل بين المتثاقفين، بهدف الاعتناء المتبادل، وكذا توفير شروط الثقة والرغبة لتحقيق التفاعل ولضمان التقدم والتطور المتبادلين واكتساب المعارف والعلوم والتجارب والخبرات الإنسانية. و المثاقفة هي (هي مجموعة من الظواهر الناتجة عن احتكاك مستمر ومباشر بين مجموعات أفراد تنتمي إلى ثقافات مختلفة تؤدي إلى تغييرات في الأنماط الثقافية الأولية لهذه المجموعة أو تلك)[7] . فالمثاقفة عند طه حسين كانت في البداية تعني الأخذ والإقتباس من الحضارة المثفوقة وثمار الثقافة بدءا من طرق التعليم الحديثة إلى كل أشكال التعبير الأدبي الجديدة علينا كالرواية و المسرحية والمقالة [8].

تكاد الكثير من التعريفات تتفق حول عنصر الاحتكاك، وإن كانت تتفاوت في تحديد مكانة الطرفين اللذين تم بينهما هذا الاحتكاك، فالمثاقفة تدل أحيانا على الاحتكاك اللاإرادي الذي يفرض فيه الطرف القوي ثقافته وحضارته على الطرف الضعيف، حيث تصبح الاستعانة بأنظمة

6 محمد سليمان ، أسئلة الهويات و المثاقفة في عصر العولمة، معهد إبراهيم للدراسات الإعلامية والثقافية، رام الله– فلسطين، الطبعة الأولى، 2008م .

7 منير بعلبكي، قاموس المورد، إنجليزي – عربي، دار العلم للملايين، بيروت، 1994، ص 24.

8 علي شلش ، طه حسين مطلوب حيا وميتا، الدار العربية للطباعة والنشر ، القاهرة 1993م .

الغير وأفكاره ضرورة حتمية لتخطي الصعوبات التي يفرضها التأخر الحضاري، ولاتخضع العلاقات التي تربط الطرفين لنمط واحد من التواصل، فالتثقف انفتاح أيّاً كانت معطياته ونتائجه.

نستطيع أن نقول بأن (التثاقف يشمل الظواهر التي تنجم عن الاحتكاك المباشر والمستمر، بين جماعتين من الأفراد مختلفين في الثقافة، مع ما تجره هذه الظواهر من تغيرات في نماذج الثقافة الأصلية، لدى إحدى المجموعتين أو كليهما)[9] ،

ومعنى هذا التعريف أن المثاقفة هي تأثر الثقافات ببعضها البعض، نتيجة الاتصال و الاحتكاك بين الشعوب والمجتمعات، مهما كانت طبيعة هذا الاتصال و أهدافه، وإن كانت معظم دراسات الاتصال الثقافي ركزت بالدرجة الأولى على نوع معين من عمليات التغيير، وهو التغيير الاجتماعي أو تغيير الحياة الاجتماعية، أو انعكاس ذلك التغيير على الثقافة.

التثاقف أو المثاقفة ، اصطلاح عرفه العرب وأطلقوه على المطارحة في العلم والأدب ومذاكرتهما، وهذه لم تكن سوى صورة أولية للمثاقفة، التي ستتعقد من خلال الانفتاح على تراث العالم الخارجي وعلومه وأفكاره ونظرياته الأشد خطورة، ومع أن نتاج الدراسات الحديثة أصبح يضمن الآن مصطلح المثاقفة معنى آخر، وهو العلاقة الثقافية التبادلية مع الحضارات الأجنبية، فإن الاصطلاح القديم يحمل في طياته صورة طرفين يتبادلان المعرفة والثقافة في ما بينهما داخل حضارة واحدة، ويشتركان في اللغة نفسها، وفي مواضيع ثقافية يعرفها الطرفان المتثاقفان.

أن تزايد الحاجة إلى العلم لحل المشكلات المعقدة في المسائل الفكرية و العلمية واللغوية والأدبية وضرورة الحياة المختلفة خلق واقعا اجتماعيا جديدا،وهكذا فإن التعريف الحديث للمثاقفة يشترط وجود الطرف القومي الآخر المختلف في عرقه، والمثاقفة بحسب هذه الاشتراط هي :

(تبادل ثقافي بين شعوب مختلفة وبخاصة تعديلات تطرأ على ثقافة بدائية نتيجة لاحتكاكها بمجتمع أكثر تقدما، أو تأقلم ثقافي يفضي إلى رفع مستوى فرد أو جماعة أو شعب)[10] .

كيف وصلت إلينا المثاقفة :

يرى المؤرخون أن المثاقفة دخلت إلى الثقافة العربية بشكل تلقائي كأحد الاستحقاقات التي ترتبت على الفتوحات الإسلامية، ودخلت المثاقفة إلى الثقافة العربية في سياق ممنهج إبتداءا بحركة

9 هيرسكوفيتش ملفيل، أسس الأنتروبولوجيا الثقافية، رياح النفاخ ، وزارة الثقافة دمشق 1974م . ص221

10 عزالدين المناصرة، المثاقفة و النقد المقارن– منظور إشكالي، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، 1996م. ص74.

الترجمة في عهد خالد بن يزيد بن معاوية الأموي في القرن الهجري الأول، ومرورا بمرحلة الازدهار على يدي الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد، ثم بما حدث بعد ذلك في حالات الشقاق السياسي والدويلات المتناحرة في القرن الرابع الهجري.

المثاقفة في الثقافة العربية المعاصرة ترسمت كنتيجة الحملة الفرنسية على مصر عام 1798م ، وكانت تأثيرات الثقافة الغربية على الثقافة العربية كثيرة ومميزة بسبب وهن الواقع الثقافي العربي يومذاك، واقتصار تكويناته على ما تركته صرعات دويلات الطوائف و المماليك من آثار في التراث الثقافي العربي.

مفهوم المثاقفة عند المفكرين العرب

أن السمة البارزة لمفهوم المثاقفة في الفكر العربي تتجلى في مواقف بعض المثقفين العرب التي اتسمت بالحذر من المثاقفة برغم اعترافاتهم بأهميتها وبضرورة الانفتاح على الأخر وثقافته، وثمة مفكرين تعاملوا مع هذا المفهوم من منطلق مختلف يقوم على ضرورة التمييز بين مفهوم المثاقفة الذي يعني التفاعل المتكافئ و الاحترام المتبادل بين مختلف ثقافات الشعوب وبين مفهوم التبعية و الاستلاب والغزو الثقافي و العولمة الثقافية و الغربية . فهل نملك الشرط الثقافي الملائم للإعلان عن مثاقفة معاصرة تفترض ذاتا فاعلة، ولا تقف عند الذات المعطلة ؟

فنجد الجابري يعتبرها أي المثاقفة إيديولوجيا و فكر للهيمنة ونفي الآخر يقول في بعض أطروحاته (إن العولمة ليست مجرد آلية من آليات التطور الرأسمالي، بل هي أيضاً وبالدرجة الأولى إيديولوجيا تعكس إدارة الهيمنة على العالم)، و(العولمة هي نفي للآخر وإحلال للاختراق الثقافي في محل الصرع الأيديولوجي) ، وأن (ثقافة الاختراق تقوم على جملة من الأوهام هدفها التطبيع مع الهيمنة وتكريس الاستتباع الحضاري)[11]. ويرى الجابري أنه (ليس هناك ثقافة عالمية واحدة، بل ثقافات)، وأن (تجديد أي ثقافة لا يمكن أن يتم إلا من داخلها، بإعادة بنائها و ممارسة الحداثة في معطياتها و تاريخها و التماس وجوه من الفهم و التأويل لمسارها تسمح بربط الحاضر بالماضي في اتجاه المستقبل)، ويعتبر الجابري أن (الهوية الثقافية مستويات ثلاث: فردية، وجمعوية، ووطنية قومية، والعلاقة بين هذه المستويات تتحدد أساساً بنوع (الآخر) الذي

11 محمد عابد الجابري، العولمة و الهوية الثقافية، المغرب، مجلة فكر ونقد، العدد السادس. ص5.

تواجهه... ولا تكتمل الهوية الثقافية إلا إذا كانت مرجعيتها جماع الوطن و الامة و الدولة)[12]. ومن هذا المنطلق يبدي الجابري تخوفه من انشطار الهوية الثقافية العربية. [13]، أما الدكتور عبد الله أبو الهيف فقد استبعد من دراسته حول الغزو الثقافي و المفاهيم المتصلة به مفهوم المثاقفة وقام برصد مختلف المفاهيم الأخرى التي تدل على الاتجاه السلبي الذي تسير فيه العلاقات الثقافية القائمة بين الشرق و الغرب، ومن ابرز المفاهيم التي يقدمها أبو الهيف في دراسته تلك بالإضافة إلى مفهوم الغزو الثقافي مفهوم الاستقطاب والتبعية و التغريب (الاستلاب) و التنميط، وينهي دراسته بتوجيه نقد لمفهوم المثاقفة قائلا: ولا يزال أمر الغزو الثقافي محيرا لدى الكثيرين فمنهم من لايرى انه غزو فيختار له مسميات أخرى، ومنهم من يهون من شانه وتأثيره ولا يجد فيه تأثير ثقافة غازية قاهرة في ثقافة مغزوة مقهورة، وإنما يعدون المثاقفة تلاقحا معرفيا وحضاريا ويوردون حججا لا نهاية لها عن العلاقات الثقافية بين الشعوب، ويؤكد أبو الهيف على ضرورة التنبه عند دراسة الانفتاح على الآخر في تحول المقارنة إلى مفاضلة بين ثقافتنا وثقافة الآخر، ويتم الربط بين التطور الصناعي و التكنولوجي وقيم الهوية و التطور الثقافي، ويقول إن ما نخشاه هو ازدواجية ثقافية تمهد لهيمنة ثقافة الآخر وإزالة الثقافة الوطنية تحت مبرر التحديث[14]. أما المفكر ادوارد سعيد وهو من محللي الخطاب الاستعماري فقد وجد نفسه ضمن المقاومة الوطنية للإمبريالية نفسها في كل مكان تقريبا، ويؤكد سعيد على دور الناقد في استعداده لمساءلة الخطاب النقدي ذاته مع انفتاحه على الأقليات المهمشة من أجل احضارها إلى المتن الثقافي مع كسر الحدود القومية و العرفية من أجل تحقيق خطاب عالمي انساني ومن أجل الناقد من هيمنتة الانتماءات العمياء عليه، حيث يؤكد ادوارد سعيد على نظرية الهيمنة و المركزية الغربية بسبب قوة المسيطر[15]. وفي رؤية أخرى مغايرة نجد المفكر العربي –علي حرب– يرى أن صفات الجمود و الثبات في هويتنا لا تساعد في الحفاظ عليها، بل يجب مسايرة التغيرات التي تحدث حولنا، ومحاولة التساير معها إيجابيا بمعنى فهم كيفية التغير يقول في كتابه (الماهية و العلاقة) أن اندفاعات العولمة وخصوصاً في مسارها الثقافي تهدد بجرف

12 المرجع السابق، ص6.
13 محمد عابد الجابري، مسألة الثقافة، بيروت، 1997م.
14 قويدر بن احمد، المثاقفة ابرز آليات حوار الحضارات، مجلة حوليات التراث.
15 ادوارد سعيد، الثقافة و الامبريالية، بيروت مؤسسة الابحاث العربية، 1986م.

المترددين في كيفيات التعامل معها، إذ هي تواصلية بلا فراغات وذات صفة مكانية مشغلة بكاملها لا مطرح فيها للحياديين و المتفرجين، وتفرض التجدد و التغير التكيفي الذي تقتضيه التساؤلات، لأن الميل الدائم إلى المسبق و الثابت و المنجز لا يمكن أن يستمر في تأهله طويلاً لمواصلة القيام بوظيفة الحفاظ على الهوية، وذلك لأن منطق الهوية في المتغيرات العاصفة التي يعيشها عالم اليوم مرتبطة باستحقاقات ما يلزمنا عامل الزمن بالإجابة على الأسئلة التي يطرحها، وأول هذه الاستحقاقات هو (أن نستبدل سؤال من أكون؟ بسؤال كيف يمكن أن أتغير لكي أغيّر علاقات المعرفة و الثروة و السلطة....)[16]. موقف علي حرب في كتابه الممنوع و الممتنع[17]، إذ يرد فيه على مقولة الغزو الثقافي ومن يتحدث عن عملية الاغتصاب الثقافي التي مارستها الجراحة الاستعمارية الثقافية الليبرالية على الفكر العربي المعاصر، – على حد قوله: إن النص القوي المميز يخلق حقيقته و يولد مفاعيله ويفرض نفسه ويؤكد إن هذا هو شأن النصوص الرائعة و الأعمال الضخمة أنها تملك القدرة على التأثير و النفاذ و الانتشار سواء كان أهلها غالبين أو مغلوبين، كما ويؤكد على ضرورة أن نغير موقفنا من دواتنا ومن الغرب في آن واحد. ومن هنا، يتجلى لنا التناقض و التصادم الحاصل بين موقفين متضادين للمفكر العربي، ينبع هذا التصادم أساسا من أزمة الهوية والبحث عن الخصوصية الثقافية، حيث يقودنا هذا الموقف إلى إشكالية الانتماء و ما يمر به الفكر العربي من ضياع بين مفهومي القطعية و الاندراج و الأنا و الآخر، و الحق، إن القطيعة ورفض الآخر تؤسس عزلة الخطاب العربي وتستثمر ذاته لذاته وتجره إلى طمأنينة تغيبه تاريخيا وثقافيا ومعرفيا وتبعده عن اكتشاف موضعه الحقيقي داخل الحراك الإنساني للمعرفة، كما إن الاندراج و الاندماج بالآخر إلى حد إذابة الهوية العربية وطمس خصوصيتها الثقافية، يشل الفكر ويعرضه للانكسار و التقوقع مما يجعله أسير التلقف الأعمى ووعيا مستهلكا غير قادر على صياغة تفرده وكيانه الخاص. إن وعي الأخر شرط أساس للوجود في العالم ، ووعي الذات شرط أساس لإنتاج الهوية وعليه لابد من خطاب منتج يستثمر صراعاته المعرفية ويجتاز عزلته ويشكل تفوقه بين المتفوقين مما يعزز عضويته داخل النشاط الإنساني، داعما فرديته من جهة، و محققا إنسانيته من جهة أخرى. إن

16 حاتم بن عثمان، العولمة والثقافة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان،1999م.ص37.

17 علي حرب، الممنوع والممتنع، الدار البيضاء– المغرب، ط2، 2000م. ص236.

المثاقفة التي نسعى إلى تحقيقها هي التي تقوم على أساس من الشراكة الضمنية بين الأنا والأخر، قائمة على الندية و الاحترام و التسامح و الاعتراف بخصوصية الأخر و اختلافه، كما وترفض إشكال الغزو الثقافي كافة، وقد عبر المهاتما غاندي عن ذلك قائلا: إنني أفتح نوافذي للشمس و الريح، ولكنني أتحدى أية ريح أن تقتلعني من جذوري [18]، و المثاقفة بهذا المعنى تعد رافدا مهما تسعى كل أمة من خلاله إلى معرفة الأخر واستثمار ما لديه من قيم و معطيات إنسانية و حضارية و إلى تنمية كيانها الثقافي بشكل خلاق وغير مضر بمقومات الهوية وثوابتها.

الفرق بين المثاقفة و الغزو الثقافي:

وهنا لابد من الإشارة إلى ضرورة التفريق بين المثاقفة و الغزو الفكري حتى لا يحدث التباس بينهما، فكلا المصطلحين يدل على وجود علاقة ما بين ثقافتين أو أكثر، وهذه العلاقة التي تربط ثقافتين متباعدتين أساسا في جذورها الدينية و انتماءاتها العرقية، و واقعها الجغرافي، و تراثها الاجتماعي و الثقافي و الجمالي، إما أن تتبع منحى تصادميا يتولد منه الاستلاب الحضاري، لذلك كان الغزو الفكري هو النقيض للمثاقفة، لأن المثاقفة تقوم على مبدأ التواصل وطلب الاعتناء بثقافة الآخر و إغناء ثقافته في الوقت نفسه في جو من التكافؤ و الحوار، مما يولد علاقة تفاعل مثمر تسير في اتجاهين، بينما يستهدف الغزو الثقافي احتلال العقل و غزوه من الداخل، و استغلال حالات الضعف الذتي لتخريب المناعة الذاتية للكيان المغزو، ومن ثم دوام الهيمنة على الإدارة و الإمكانات القومية برمتها دون حاجة إلى الأسلحة التقليدية، لأن مزود بسلاحه الفتاك الداخلي أي التنميط الثقافي من خلال آلية صناعة العقل و توجيه الثقافة، و المثاقفة بعكس الغزو الثقافي الذي يتضمن في طياته الرغبة في محو الآخر و إلحاقه وفرض التبعية عليه، و معاملته بنظرة فوقية عدوانية متغطرسة... إن المثاقفة تقوم في أساسها على الاحترام و التسامح و الاعتراف بخصوصية الآخر و اختلافه، وفي إطارها تتفاعل الجماعات و الشعوب و تتواصل بهدف الاعتناء المتبادل، لهذا فهي تفترض الثقة و الرغبة في التواصل و التقدم و التطور واكتساب العلم و المعرفة.

و من منطلق هذه الرؤية التحليلية يتضح أن المثاقفة تتموقع موقع عكسي مع الغزو الثقافي، لأنه يتضمن في طياته الرغبة الجامحة في هزيمة الآخر وقهره، بمعنى القضاء على هويته و

18 المثاقفة ابرز آليات حوار الحضارات، مجلة حوليات التراث.

خصوصياته، ثم محوه و إلحاقه و فرض التبعية عليه؛ و معاملته بنظرة فوقية عدوانية و متغطرسة، و أما المثاقفة فتقوم على التساوي و الاحترام و التسامح و الاعتراف بالآخر، وحقه في الإختلاف، ومن خلال منهج الاحترام المتبادل بين الذات و الآخر تكتسي المثاقفة أهمية علمية وإنسانية بالنسبة للفرد، لأنها تنمي معرفته بالآخر، ونستطيع من خلالها أن ندرك العلاقة بين ضرورة الانفتاح على الآخر، وضرورة ترسيخ قيم الانتماء، ولذلك فإن معرفة الآخر ضرورية ليتعرف الفرد على ذاته ومقومات هويته بشكل أفضل و أكمل من خلال اختلافه عن الآخر. ومن ناحية أخرى تعد المثاقفة وسيلة فعالة لتنمية روح الثقة و التسامح بين الأفراد و الجماعات، فهي تزيل كثيرا من الأوهام و الأمراض و المخاوف، و تساعد أيضا على خلق تواصل و تفاهم أفضل بين الشعوب، وعلى تفعيل القواسم المشتركة بينها، مما يؤدي إلى إزالة بؤرة التوتر و العداوة التي غالبا ما يغذيها التقوقع و الانعزال و الجهل بالآخر و الأحكام المسبقة و السلبية.

مفهوم الاستلاب :

يمكن تعريف الاستلاب بأنه وقوع الكائن العاقل، الذي يمتلك حيزا من التفكير العادي، و المتفاعل مع محيطه بالضرورة، في موقع الأسر الكلي، وشبه المطلق، لفكرة ما، أو لمقدرة أكثر تأثيراً من مثيلاتها، بحيث تكون اللولب الجوهري الذي تدور في فلكه كل المسميات الأخرى، وبحيث تكون هذه المقدرة بمثابة الرأس الموجه، والذي يطلق العنان لأنفاسه التي تتلقفها ذوات أخرى، ليست بنفس السوية الفكرية، ولكنها بالضرورة متأثرة بما تتلقفه من المحيط الذي وقعت في أسره من كل الجوانب. والاستلاب أنواع كثيرة، تتباين وتتناغم بحسب الشرط الوظيفي و الموضوعي لتلك الذات المستلبة، فالاستلاب العقلي، يقود بالضرورة إلى الاستلاب الفكري والثقافي، وبالتالي يفرض نهجه على تلك السلوكيات، والطبائع المرتبطة بتلك الذات المستلبة على كل المستويات، الاجتماعية، النفسية، الفكرية، الثقافية، والحياتية اليومية

معنى الاستلاب :

من الناحية اللغوية وكما ورد في معجم المعاني الجامع ، فإن تعريف ومعنى

استلاب: هو (اسم)، مصدر استلب، وحين يقال حاول استلاب أمواله، بمعنى اختلاسها.

وحين يقال، إنه يعيش حياة استلاب، أي يعيش حياة خضوع و استعباد بفعل ظروف اجتماعية ، اقتصادية، أو فكرية أو سياسية خارجة عن إرادته. سلب أخده بالقوة أو الخداع أو الإكراه، ويستلب يضاعف في قوة الفعل ويصرّ عليه، والاستلاب الفكري يعني مسخ الفكر الذي يمثل هوية فكرية لمجموعة أو جماعة أو مجتمع، أما لماذا يقع فعل الاستلاب الفكري، فإن الهدف هو مسخه وإصابته بالهزال والضعف، لكي لا يستطيع مواجهة الفكر الآخر فيسهل إصابته بالعجز ومحو دوره وخصوصيته وملء فراغه بالفكر الآخر .

اكتسب مفهوم الاستلاب حق الوجود الفكري الراسخ، منذ أواخر القرن الثامن عشر،ولا يزال بين المفاهيم الفكرية البارزة في الفلسفات الحديثة، والمعاصرة، كما في علم الاجتماع، وعلم النفس.

الاستلاب مفهوم ملتبس :

يعد مفهوم الاستلاب من المفاهيم الأكثر استعمالا وتداولا في الفكر العربي المعاصر لتوصيف علاقة المثاقفة الواصلة بيننا وبين الغرب، وذلك للدلالة على حالة التبعية الثقافية ونقدها . الاستلاب، شكل من أشكال الصورة المشوهة للذات، وهذا التماهي بين الذات والآخر لا يصنع، في واقع الأمر، كونية حضارة واحدة، وإنما حضارة ومحاكاتها بواسطة مرآة، والمستلب لا يكون مفتوحاً على إمكانات ذاته، ولا صيرورة له، إنه مفعول به، فقط لفاعل هو الآخر .

والآلية التي يعمل عن طريقها الاستلاب في هذه الحالة هي (الاستدماج) وهي آلية تعني استجابة المرء لفكرة أو قيمة أو نمط معين ينتمي إليه شخص آخرأو جماعة أخرى، والتوحد معه، وتكييف الذات وفقا لمعطياته. والتغير الاجتماعي الثقافي القائم على عملية الاستجابة غير الناضجة أو السلبية للنموذج المغاير تحت تأثير الانبهار أو وسائل الاستمالة أو الضغط هو الناتج المباشر للأستلاب، ويتعدد ما ينطوي عليه النموذج المغاير من عادات وسلوكيات وممارسات مثل :

- نظام الملبس
- نظام الطعام
- نظام الترفيه
- نظام التعليم
- شكل الانتماء العائلي

- شكل تكوين العلاقة بين الجنسين

وغيرها، ينطوي النموذج كذلك على نهج التربية ، ونهج الاستهلاك، ونهج العلاقة مع دور العبادة، ونهج الممارسة السياسية وغيرها [19]. ويأتي الاستلاب على أنواع، منها الثقافي و الاقتصادي وحتى الاجتماعي، وربما يكون الاستلاب الفكري هو القناة التي تمر من خلالها كل نوعيات الاستلاب الأخرى، وثمة (الاستلاب العقلي، الذي يقود بالضرورة إلى ا لاستلاب الفكري و الثقافي، و بالتالي يفرض نهجه على تلك السلوكيات، و الطبائع المرتبطة بتلك الذات المستلبة على كل المستويات، الاجتماعية، النفسية، الفكرية، الثقافية، والحياة اليومية) ،وبهذا يصبح الإنسان مفرّغا من فكره ذي الخاصية الذاتية، أو ما يطلق عليه بعض المختصين بالهوية الفكرية. ولا ريب أن التفكير ذو الطابع الخصوصي يشكل أهمية كبرى للكائن البشري، لأن ضياع الهوية الفكرية الذاتية تعني ببساطة ضياع الإنسان، (ومن شروط وجود الكائن العقلاني، الذي يمتلك الذات الحرة، المستقلة، هو التفكير، وإنه من شروط الاستلاب الأساسية هو التفكير، " الموضوعي، العقلاني، البناء، الخلاق"، لدى هذا العقل أو ذاك)، وهنا يحدث فعل الاستلاب بأبشع صوره ويترك آثاره على البشر لدرجة أن من يصاب به، سوف يفقد قدرته على الاحتفاظ بفكره الخاص الذي نهله من بيئته وعمقه الفكري و الثقافي، ومن الأمور المعلومة، أن الرحلة البشرية الطويلة و الشاقة شهدت على مرّ العصور صوراً لاستلاب فكرية، عملت كالسيف القاطع في حياة الكثير من مجتمعات العالم و أممه، وغيرت مسارها التاريخي، و الاقتصادي و السياسي، فحين يفتقد مجتمع ما إلى الفكر الذاتي الذي نشأ بنشوئه، فإن شخصية الفكرية الجماعية تتعرض للتصفير شبه التام، ويغدو مستلبا على نحو بائن. الأسباب التي تقود مجتمع ما أو أمة إلى هذا الحال، ليصبح ممسوخا من الناحية الفكرية،هي أسباب عديدة، منها ما يدور بين الأمم من سباق مضطرد على التفوق الذي يأخذ مناح عديدة، فالحروب التي قامت بها الإمبراطوريات العظمى على مر التاريخ أخذت شكل القوة العسكرية التي تهيمن من خلالها هذه الإمبراطوريات على سواها، ولكن مع استمرار الوجود البشري وتطور أشكال الهيمنة، ظهرت قوى أخرى للسيطرة على الآخر لا تلجأ إلى استخدام القوة .

19 وليد منير ، التنمية وأزمة الثقافة

ومن هذه الأساليب الجديدة، الاستلاب الفكري، فهو مجرب وكفيل بإيقاف حركة الأمة وجعل عقلها الجمعي كفيفا، وغير قادر على أنتاج الفكر الذي يمكنه وضع حد للفكر المهاجم، لأسباب كثيرة، منها الفقر المادي و الثقافي و العلمي، وحالة الإبهار التي يصاب بها الأفراد المستلبون، فضلا عن الشعور بالدونية إزاء الآخرين، ومثالنا اليوم هو نموذج الفكر الغربي الذي يسعى بكل ما أوتي من أساليب لإصابة العقل الجمعي الآخر بالضمور ومن ثم التوقف عن المواجهة الفكرية، وهي معركة و إن لم تكن بقوة السلاح، لكنها لا تقل ضراوة عن تلك الآثار التي تخلفها الحروب. الشعور بالدونية إزاء الفكر الأقوى، يمثل أخطر الأسباب التي تدفع العقل الجمعي الأدنى على الاستسلام، فمجرد إصابة الشخصية بهذا النوع من الشعور، يجعله مستسلما للآخر بنحو كلّي، ويقع في أسره التام، وتبقى الهوية الفكرية الخاصة في حالة ضمور وانطفاء وعجز شبه تام على مواجهة الفكر الدخيل، ولعل أخطر ما في الشعور بالدونية، حين يتحول إلى نمط جماعي، يصيب المجتمع كله، هنا يصير العقل الجمعي مشلولا بنحو تام، و بالتالي تندثر كل أسباب وعناصر المواجهة.

الاستلاب الفكري:

الوافد الجديد و التخلي عن الأصول هل التمسك بالموروث الثقافي كأساس لصيانة الهوية الثقافية من التشوه و الانحلال، و التي تعمل على التحذيرمن خطر الاستلاب الفكري، و من ثمة فالفكرة الجوهرية عند الحداثيين هي الانفتاح على ثقافة الآخر، بوصفها ثقافة إنسانية عالمية، و العرب مخيرون بين الاندراج في الثقافة العالمية، و المساهمة من خلال ذلك في الاندماج في التاريخ، من خلال إشاعة قيم الحداثة وإما الاكتفاء بالموروث و البقاء خارج الحضارة و على هامش التاريخ الإنساني. هذا هو التوجه العام للمفكرين العرب الذين يحلون لبعضهم أخذ توصيفات و تسميات أخرى مثل النهضويين، التنويريين، و العقلانيين ويبقى السجال بينم. إن الاستراتيجية المعتمدة هي إعادة النظر في الموروث، وفي الخصوصية تحت عنوان نقد العقل العربي، أو نقد العقل الإسلامي، وظهرت المشاريع التي دعت إلى غربلة التراث و إعادة قراءته، يتسلح فيها كل مشروع بأدوات هي من إنتاج ثقافة الآخر، التي ينبغي استيعابها لأنها ثقافة العلم عند زكي نجيب محمود و ثقافة الواقع الموضوعي عند الماركسيين و ثقافة النقد عند الجابري. أحسن نموذج يمكن أن نقدمه مثلا لهيمنة الثقافة الغربية ما قدمه زكي نجيب محمود في كتابه

((عربي بين ثقافتين))، الذي يقر في مقدمته بأنه سينظر إلى الموضوع من زاويتين الأولى زاوية المبادئ و فيها يطرح السؤال " هل هنالك ما يمكن تعديله في النظرة العربية حتى لا يتورط العربي في ثبات يؤدي به إلى ضعف و عجز، مبقيا على ثبات الجانب الذي لابد من بقائه...؟"[20].

أما الزاوية الثانية فهي زاوية النظر العلمي إلى أوضاع الحياة ، ويطرح من خلالها سؤالا حيويا " هل في تراثنا الفكري ما يمنع العربي عن المشاركة في جهود العلم الجديد" [21]

و بالطبع فالعلم الجديد هو العلم التجريبي الذي يستهدف الظواهر ويسعى ألى الكشف عن قوانينها. إن نمط التساؤل الذي يقدمه زكي نجيب محمود يعكس توجهه الفكري وهو الذي حرص على تبين الجانب المعقول من التراث وطرح اللامعقول منه، ودعا في أكثر من موقع إلى تجديد الفكر العربي بما يتسق ومنجزات العلم الحضاري، وهو لا يمل من تقديم المقارنات بين الثقافتين العربية و الغربية . و الشطر الأهم في نظر زعيم الوضعية في الوطن العربي هو ذاك الذي يتحقق التقدم في ظله إنه الشطر الذي ينقل علوم الغرب وبه يتحقق التجديد في الفكر العربي وبه يكون التحول من فكر قديم تقليدي إلى فكر جديد يتعامل مع المبادئ كفروض لا كحقائق و يحدث في اللغة يتحقق بها التحول من حضارة اللفظ إلى حضارة الأداء. إن الثنائية التي يتظاهر زكي نجيب بإظهارها في تكوين الثقافة العربية تلك التي تجمع بين قيم الماضي و متطلبات الحاضر، تتحطم فيها قيم التراث على عتبات متطلبات الحاضر. من حق أصحاب المشاريع، الدعوة إلى مواكب التطور الحضاري الراهن بل من الضروري للعرب اليوم أن يتوجهوا بكليتهم إلى منجزات هذا التطور، ولم يكن هنالك أي تقصير، لا بالأمس مع رواد النهضة و الإصلاح، ولا اليوم مع أنصار الحداثة، والمسألة ليست مجرد دعوة تبحث عن تبرير، بل هي ممارسة تأكدت في سياسة مجمل الدول العربية، ويعبر عن هذا التوجه التحديثي " فقد حظيت هذه الحركات بتأييد شعبي ساحق ومثلت بالنسبة إلى الأغلبية من السكان الرهان التاريخي الأول من أجل الخروج من التخلف و الجمود و الأمية"[22] . إن وعي واقعة التخلف وحدها كافية لتدفع الثقافة نحو الأخذ بالوافد الجديد، وسيصبح من المشروع التقليل من شأن الخصوصية الثقافية، و

20 زكي نجيب محمود، عربي بين ثقافتين، دار الشروق ،مصر، 1993م.

21 زكي نجيب

22 برهان غليون، اغتيال العقل، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر ،ط 1990 م.

على الأقل أن لا تكون هذه الخصوصية سببا يحول دون محاورة الآخر نقرأ هذا الإلحاح على مزيد من الانفتاح و الإمعان في استحضار الوافد في أعمال المفكر المغربي علي اومليل في كتابه سؤال الثقافة، الذي يشترط شرطين حتى تفرض ثقافتنا نفسها على الآخر " الأول أن تسندها قوة اقتصادية و سياسية... و الثاني أن تكون ثقافة حداثية" [23] وأن تكون الثقافة حداثية هو أن لا تتشبث بالموروث لأن هذا التشبث انغلاق يكتفي بالخصوصية. لسنا في حاجة إلى مزيد من الشواهد للتأكيد على أن مقتضيات التحديث تستلزم الاطلاع على الوافد الجديد، إلى حد التضحية بالخصوصية هنالك فرق بين الاطلاع بوصفه معرفة و تأملا لهذا الوافد وبين التماهي معه لدرجة يحجب عن الثقافة المحلية خصوصيتها ، لذا فإنهم قد وقعوا في فخ الاستلاب للثقافة الغربية.

المثاقفة و الاستلاب الفكري:

إذا كانت الثقافة، كما يقول كلاهكهون، نسقا تاريخيا مستمدا من الأساليب الظاهرة والكامنة للحياة، فإن محاولة الآخر المختلف أن يسقط نسقه التاريخي المستمد من أساليب حياته على النسق التاريخي للذات يعد نوعا من العمل على تشويه صورة الذات بما هي في جذورها الخاصة. الاستلاب ، إذن ، شكل من أشكال الصورة المشوهة للذات، وهذا التماهي بين الذات والآخر لا يصنع، في واقع الأمر، حضارة كونية واحدة، وإنما حضارة ومحاكاتها بواسطة مرآة، و المستلب لا يكون مفتوحاً على إمكانات ذاته، ولا صيرورة له ، إنه مفعول به، فقط لفاعل دلالي هو الآخر. و الآلية التي يعمل عن طريقها الاستلاب في هذه الحالة هي " الاستدماج" ، وهي آلية تعني استجابة المرء لفكرة أو قيمة أو نمط معين ينتمي إليه شخص آخر أو جماعة أخرى، والتوحد معه، وتكييف الذات وفقا لمعطياته. والتغير الاجتماعي الثقافي القائم على عملية الاستجابة غير الناضجة أو السلبية للنموذج المغاير تحت تأثير الانبهار أو وسائل الاستمالة أو الضغط هو الناتج المباشر للاستلاب، ويتعدد ما ينطوي عليه النموذج المغاير من عادات وسلوكيات وممارسات مثل : نظام الملبس – نظام الطعام – نظام الترفيه – نظام – التعليم – شكل الانتماء العائلي – شكل تكوين العلاقة بين الجنسين ...إلى غير ذلك ، ينطوي النموذج كذلك على نهج التربية، ونهج الاستهلاك، ونهج العلاقة مع دور العبادة، ونهج الممارسة السياسية وغيرها.

23 علي اومليل، سؤال الثقافة، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2005م.

بيد أنه لا بد أن نميز بين ظاهرة الاستلاب الثقافي الحضاري وظاهرة المثاقفة، فالمثاقفة تعني الاستجابة الايجابية الناضجة لبعض الأفكار والقيم و المعالجات العميقة وتضمينها نسج الثقافة الخاصة بالذات تضميناً يطور من أفق حياة الذات في اتجاهها الأصلي نفسه.

وتعود عصور بدايات التقدم في أوروبا، باتفاق الجميع، إلى شروع الغربيين في النهل من علوم العرب في الكيمياء و الفلك و الطب، والاطلاع على ثقافتهم الإسلامية بفروعها المتعددة بما فيها مناهج التفكير، و المبادئ الأخلاقية للتعامل الاجتماعي، ومقاصد التشريع و الحكم . لذلك كله فإن جوستاف جرونيباوم يكتب في كتابه حضارة الإسلام (إن أولئك الذين احتكوا بالفكر العربي و أدب السلوك العربي، كثيراً ما كانوا يحسون إزاءهما بإعجاب لا يستطيعون له رداً، وكثيراً ما كانوا يجدون أنفسهم يحاكون العرب في طرائقهم)[24] . وقد ترجم ابن سينا والرازي و الخوارزمي و الغزالي و ابن خلدون وغيرهم ليصبحوا علامات مضيئة على طريق التطور الحضاري في الغرب. و بالمثل فقد ترجم أرسطو وأفلاطون ودانتى وجالينوس ليرفدوا الثقافة و العلم العربيين بروافد لا تقل أهمية.

وهكذا فإن مجال المثاقفة قد اتسع في فترات تاريخية معينة لإفادة طرف من الآخر دون أن يصبح فرض النموذج الكلي، اجتماعياً وثقافياً وحضارياً، هو الهدف الأساس لعالم الغرب أو عالم الشرق في عملية الجدل و التفاعل. والآلية التي تعمل عن طريقها المثاقفة هي (التمثل) بما يعنيه هذا التمثل من عملية إعادة الإنتاج وفقاً لنسق تفاعلي خاص .

تتحول المثاقفة إلى استلاب ثقافي حين يتحول التمثل إلى استدماج[25]، التمثل يحفظ الفروق، ولكن الاستدماج يذيبها، والحوار الحضاري لا يكون حواراً (وذلك لأن الحوار يفترض طرفين منفصلين تماماً) من خلال الاستلاب، إذ يصير، حينئذ، بمثابة صدى صوت المتحاور معه.

وتوهم أن الصوت والصدى يصنعان تحاوراً بينهما افتراض ساذج يضع "المونولوج" محل "الديالوج" ، كأن نجوى الذات ترقى إلى جدل الرؤى و المواقف و الأفكار.

مناهج تعليم مستلبة :

24 جوستاف جرونيباوم، حضارة الإسلام ، ت : عبد العزيز توفيق جاويد، الألف كتاب الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994م, ص 80-81.

25 الاستدماج عبارة عن عملية يحاول فيها الشخص نسخ أو تكرار سلوكيات أو أفكار من الوسط المحيط أو من أشخاص آخرين وجعلها جزء من داخله.

إن الإنسان إذا انهزم داخليا فإنه يصبح مسلوب الإرادة، إنهم يحاولون محو الشخصية الإسلامية، بحيث يصبح الإنسان المسلم تابعاً لا كيان له، سواء في ذلك الكيان الوطني،أو القومي أو الديني، ولا يهم أن يظل اسمه محمدا.مثلا، وجنسيته من أي بلد إسلامي، إنما الذي يهم هو أن يكون محمد هذا مستلب الفكر، [26] . ان الاستلاب الفكري هو أن تتخذ أمة من الأمم مناهج التربية و التعليم لدولة من الدول الكبرى، فتطبقها على أبنائها و أجيالها، فتشوه بذلك فكرهم، وتمسخ عقولهم، وتخرج بهم إلى الحياة وقد أجادوا بتطبيق هذه المناهج عليهم شيئا واحدا ... هو تبعيتهم لأصحاب تلك المناهج الغازية[27]. كذلك فإن الاستلاب الفكري هو أن يحول بين أمة من الأمم. وبخاصة الدول الإسلامية ، وبين تاريخها، وماضيها، وسير الصالحين من أسلافها، ليحل محل ذلك تاريخ تلك الدولة الكبيرة الغازية، وسير أعلامها و قادتها، فيشب المثقف من أبناء تلك الأمة المقهورة وليس في نفسه مثلا إلا ما يقرأ عنه في تاريخ الدولة الغازية، فيذهل عن تاريخه، وعن سير الصالحين من أسلافه، ويذهل عن حاضره و مستقبله، ويضل عن معالم طريقه.[28] . أن الانغماس في تيار القبول المطلق للحضارة الغربية في مجتمعنا العربي على مدى القرنين الماضيين قد استقطب قلة (مؤمنة) متعصبة، عبرت عن نفسها، جيلا بعد جيل، في محاولة تحويل مجتمعها إلى مجتمع غربي، مبنى و معنى، شكلا و مضمونا، ولم تفتر في دعوتها إلى التغريب، و نلاحظ حرص دعاتها على استخدام مصطلحات الغرب و لغاته، وكذلك الاستشهاد بتاريخه، كما نلاحظ انبهار أصحاب هذا التيار بكل ما هو غربي، مستشعرين عجزهم عن التعبير بلغتهم، وملصقين هذا العجز بها، كما يلفت النظر أن (التخريب الحضاري) كان كبيرا حين تولى السلطة مستغربون أرادوا فرض أفكارهم بالقوة، و نكتفي بالإشارة إلى تجربتي " أتاتورك" و " بهلوي" المجاورتين للوطن العربي[29] .

إن فرض مناهج مستلبة على بعض مجتمعات بواسطة أفراد في السلطة ، وبطبيعة الحال فإن استخدام صلاحيات المناصب الكبرى، تكون ذات إبعاد أوسع في حياة مجتمعاتهم، حتى وإن

26 علي عبد الكريم غلاب، التعريب ودوره في حركات التحرر في الغرب العربي، المستقبل العربي، العدد 36 ، فبراير، 1982م. ص89.

27 علي عبد الحليم محمود، الغزو الفكري و أثره في المجتمع الإسلامي المعاصر، دار البحوث العلمية، الكويت،. ص11.

28 أحمد صدقي الدجاني ، الفكر الغربي و التغيير في المجتمع العربي، المستقبل العربي، العدد 69، نوفمبر، 1984م. ص 95- 94 .

29 المرجع السابق.

قاومت تلك المجتمعات، ومن ناحية أخرى ينبغي أن نتوقف عند هذا المعنى، فأصحاب السلطات الذين يميلون بدفة قوارب مجتمعاتهم ناحية مثاقفة مستلبة ، لا شك أنهم لم يتربوا التربية الإسلامية الصحيحة، وإنما ربما يكون العكس هو الصحيح، بل إن بعضهم ربما يكون من خريجي الجامعات الأجنبية .

مفهوم الاستشراق :

الاستشراق مشتق من الشرق عكس الغرب، وهو يعني طلب علوم الشرق ومن هنا تدل كلمة الاستشراق على الاهتمام بما يحتوي عليه الشرق من علوم ومعارف وثقافات وسمات حضارية متنوعة .

يقول إدوارد سعيد :" إن لفظ الاستشراق لفظ أكاديمي صرف ، والمستشرق هو كل من يدرس أو يكتب عن الشرق أو يبحث فيه .... وهو بإيجاز أسلوب غربي للسيطرة على الشرق وامتلاك السيادة عليه "[30]

ومن خلال التعريف يتبين لنا أن المستشرقون هم جماعة من الباحثين والمفكرين الغربين الذين تخصصوا في لغات الشرق وعلومه وأغلب هؤلاء المستشرقين من رجال الدين وبهذا تكون دوافع الاستشراق استعمارية دينية ، قبل أن تكون دوافع علمية وفكرية وبحثية .

وفي ما يخص المناهج ، فلقد درس المستشرقون الغربيون ومن تبعهم من المسلمين ، الدين الإسلامي وفق الرؤية الغربية القائمة على التمركز والهيمنة والاستعلاء ، وتطبيق المناهج العلمية المادية ، واستخدام النظرة التجزيئية ن والانطلاق من المعتقدات المسيحية بتوظيف المناهج العلمية الحديثة والمعاصرة . وحاول المستشرقون ضرب العقيدة الإسلامية وبث الشكوك حول صحة رسالة الإسلام فمن وسائلهم في التشكيك بصحة رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ومصدرها الإلهي ، إنكار النبوة والادعاء أن الدين الإسلامي مستوحى من اليهودية والنصرانية، والتشكيك في صحة الأحاديث النبوية وفي الفقه الإسلامي ، وفي قدرة اللغة العربية على مواكبة التطور العلمي ، والسخرية من بعض الأحكام الدينية كدعوى عدم مناسبتها لوقتنا الحاضر.

ومن الادوات التي استعملوها لتحقيق اغراضهم:

30 الاستشراق إدوارد سعيد ص44

_ تأليف الكتب في موضوعات منها القرآن الكريم والحديث والفقه والتاريخ الإسلامي وإصدار المجلات لنشر بحوثهم .

_ إلقاء المحاضرات في الجامعات والهيئات العلمية .

_ عقد المؤتمرات لإحكام سيطرتهم ومناقشة الأفكار الجديدة .

_ التركيز على الدعوات الهدامة والأفكار الخاطئة والفرق الضالة والإشادة بهم .

وبعد أن ألف المستشرقون في جميع العلوم والمعارف الإسلامية ،فلا تكاد تجد مجال يخص المسلمين الا وتجدهم قد تطرقوا إليه ،حتى لقد أصبحت كتبهم مصادر للدراسات الإسلامية ليس للأوروبيين فحسب بل للعرب والمسلمين أيضا، وقد تأثر بدراساتهم وبآرائهم أجيال من الباحثين المسلمين .

نماذج للاستلاب الفكري

_ < الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية > لخليل عبد الكريم الناصر : للكاتب كتب متعددة تجرأ فيها على الثوابت في الشريعة الإسلامية ، يقول في كتابه هذا :" إن هذه الشريعة التي ينادون بها هي مجرد تعاليم كان يقول ويأخذ بها عرب الجاهلية ، ثم جاء محمد، فأخذ هذه التعاليم التي كان يطبقها بدو الصحراء قبل أكثر أربعة عشر قرنا لكي تحكمنا اليوم ويذهب أبعد من ذلك حين شكك في صحة القرآن من خلال تمييزه بين القرآن المتلو والقرآن المكتوب في عهد عثمان بن عفان ..."[31]

_< قراءات في القرآن : الوصية الفكرية الاخيرة > و< الإسلام بين الأمس والغد > و< الفكر الإسلامي : قراءة علمية > لمحمد أركون :" ينطلق أركون من ملاحظة يعتبرها منهجية بخصوص التعامل السائد مع النص القرآني ، فهو يرى أن المسلمين يستهلكون القرآن في حياتهم العلمية يعملون بتعاليمه ، ولا يخضعونه للدراسة والتفحص العلمي الحديث ،وأنه لابد من اعتبار النص القرآني غنيا ومنفتحا على عدة احتمالات ، أي أنه معروض للفكر الإنساني أن يتأمله ويفكر فيه دون انقطاع"[32]

_ < الكتاب والقرآن :قراءة معاصرة > لمحمد ديب شحرور

31 الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، خليل عبدالكريم الناصر ص 11

32 الفكر الإسلامي :نقد واجتهاد، محمد أركون ص93

يعد هذا الكتاب نموذجا صارخا لعلمنة النص القرآني ، ومن ابرز ما ورد فيه :

أولا: دعواه بوجوب إخضاع القرآن للتأويل، يقول محمد شحرور: " لابد أن يكون القرآن قابلا للتأويل، وتأويله يجب أن يكون متحركا وفق الأرضية العلمية لأمه ما في عصر ما ، على الرغم من ثبات صيغته، وفي هذا يكمن إعجاز القرآن للناس جميعا "[33]

ثانيا : تقسيم الوحي إلى كتب، والزعم أن لكل كتاب منها مهمة خاصة به، اعتمادا على نفي الترادف في اللغة العربية، وتفسير النصوص الشرعية والحوادث التاريخية على غير ماهي عليه ، وصولا إلى إخراج الكثير من الأحكام من دائرة التشريع لأنها لم ترد في القرآن، الذي هو جزء من الكتاب.[34]

وخلاصة القول أن الاستشراق عبارة عن حركة فكرية علمية غربية هدفها تغريب الشعوب الإسلامية على مستوي الأعراف والعادات والتقاليد والمناهج والافكار.

الخلاصة :

عمدت في هذه الدراسة إلى فتح العلاقات بين المثاقفة و الاستلاب الفكري لرسم صورة مقاربة ، و المثاقفة التاريخية بيننا و بينه منذ القديم، بما يضعنا على الطريق الصحيح لتجاوز حالة الضياع و الصراع بين الهويات المتداخلة التي ظلت تشكل خليطا من المفاهيم وعقبة معرفية أمام تقدمنا العلمي و الحضاري، فالثقافات تتواصل بالمقابسة[35]و تنقطع بالتجاوز المعرفي على قاعدة اجتماعية – اقتصادية – سياسية متغيرة لتلبية الحاجات الخاصة بكل أمة وثقافة و الحاجات المعرفية للفكر الإنساني، لحل إشكالية نظرية أصبحت تشكل عقبات مادية مانعة من التقدم، لترقية و تطوير الطرق المعرفية و الأساليب و المناهج التعليمية.

و الصدام بين الثقافات هو تعبير عن أزمة، وانعدام التوازن بين الأخذ و العطاء، التأثير و التأثر، إذ نجد فيها أمم نفسها متخلفة و مستغلة من أمم قد سبقتها في ميادين العلم و التقنية، فهي تحتكر لنفسها ما تظنه سبب تفوقها و تقدمها، فتمنعه عن غيرها لإطالة أمد هيمنتها وسيطرتها مما يدفع الأمم الأخرى إلى البحث عن سبل أخرى و مناهج مغايرة لكسر هذا الاحتكار و التحرر من الهيمنة لامتلاك أسرار التقدم العلمي و التقني و تنوير ثقافتها، ناشطة في ميدان

33 الكتاب والقرآن : قراءة معاصرة محمد شحرور ص 60

34 الإنسان والقرآن وجها لوجه، حميدة النيفر ص 103_104

35 المقابسة أن يشترك اثنان أو أكثر في محاورة علمية أو فلسفية فيقبس احدهما العلم و المعرفة من الآخر.

التحدي و الصراع و المثاقفة الجارية على رغم سياسات الاحتواء و القمع و الحرب و التدمير و الحصار التي تنتجها الدول المتقدمة.

رؤية مستقبلية :

1. تأسيس مناخ مناسب صالح لاستعادة الشعور بالمسؤولية الأخلاقية عن تشكيل الواقع على نحو مستقبل مادي أفضل لأجيال الأمة من خلال تعميق العلاقة بين الثقافة الدينية و الثقافة الاجتماعية السلوكية.
2. تأسيس قاعدة بحثية متينة ، و العمل على تطبيق نتائج نجاحاتها العلمية، من خلال مؤسسات تعليمية تتبنى الكشف و الابتكار مع حاجات المجتمع .
3. تأسيس منهج خلاق في التعامل مع التدفق المعلوماتي بحيث تصب توظيفات هذا المنهج عبر تيار الوعي بالغايات الثقافية والاجتماعية الحضارية للأمة، ولا يعمل على إرباط ذلك التيار وتشويشه و اضطرابه.

المراجع :

1. إبراهيم أبو عرقوب، الاتصال الإنساني و دوره في التفاعل الاجتماعي- دار مجدلاوي للنشر و التوزيع -الطبعة الأولى.
2. ادوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، 1986 م.
3. بياربونت، ميشال إيزار، معجم الأثنولوجيا و الأنثروبولوجيا، ترجمة مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع- بيروت، الطبعة الأولى- 2006م.
4. ادوارد سعيد، الاستشراق.
5. حاتم بن عثمان، العولمة والثقافة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، 1999م.
6. حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب ، الطبعة الأولى، الدار الفنية، القاهرة، 1991م.
7. خليل عبد الكريم الناصر، الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية.
8. دورتيه، معجم العلوم الإنسانية، ترجمة جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع- بيروت، الطبعة الثانية- 2011م.
9. عزالدين المناصرة، المثاقفة و النقد المقارن- منظور إشكالي، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، 1996م.

10. علي حرب، الممنوع والممتنع، الدار البيضاء– المغرب، ط2، 2000م.
11. علي شلش ، طه حسين مطلوب حيا وميتا، الدار العربية للطباعة والنشر ، القاهرة 1993م .
12. قويدر بن احمد، المثاقفة ابرز آليات حوار الحضارات، مجلة حوليات التراث.
13. محمد سليمان ، أسئلة الهويات و المثاقفة في عصر العولمة، معهد إبراهيم للدراسات الإعلامية والثقافية، رام الله– فلسطين، الطبعة الأولى، 2008م .
14. محمد عابد الجابري، مسألة الثقافة، بيروت، 1997م.
15. محمد اركون، الفكر الإسلامي: نقد واجتهاد .
16. محمد عابد الجابري، العولمة و الهوية الثقافية، المغرب، مجلة فكر ونقد، العدد السادس.
17. محمد شحرور، الكتاب والقرآن قراءة معاصرة.
18. منير بعلبكي، قاموس المورد، إنجليزي – عربي، دار العلم للملايين، بيروت، 1994م.
19. هيرسكوفيتش ملفيل، أسس الأنتروبولوجيا الثقافية، رباح النفاخ ، وزارة الثقافة دمشق 1974م .